وجهات نظر

مايو 2005

رءوف عباس..في سيرته الذاتيـة

عبادة كحيلة

مادامت الأنا حاضرة، فلدي الإنسان أي إنسان ميل فطري لأن يتحدث عن نفسه، وليس الكاتب بنجوة من هذا الميل الذي يصل به إلي أن يتقنع وراء شخصياته، وهو ما نلمسه بوضوح في «ثلاثية محفوظ» (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية)، ونلمسه كذلك في «ثلاثية الحكيم» (عودة الروح وعصفور من الشرق ويوميات نائب في الأرياف)، كما نلمسه عند العقاد في «سارة»، والمازني في «إبراهيم الكاتب».

علي أن الكاتب في أحيان أخري يفارق قناعه ليتعري أمام قارئه فيما يعرف بالسيرة الذاتية، ومع أنها فن قديم في تراثنا الإنساني، إلا أن الأمثلة عليه قليلة قبل عصرنا هذا الحديث، بين هذه الأمثلة «اعترافات القديس أوغسطين» التي تشابهها من وجوه عدة اعترافات الإمام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال».

وتذهب الكثرة الغالبة من الباحثين إلي أن أول سيرة ذاتية في عصرنا الحديث هي سيرة جان جاك روسو، وقد حفلت بجرأة، ربما كانت غريبة في زمانها، وقد عاصرت هذه السيرة سيرة الدكتور جونسون لبوزويل، وتعد أول سيرة غيرية في الآداب الغربية.

في تراثنا العربي لدينا نموذجان هامان للسيرة الذاتية؛ هما سيرة ابن خلدون التي سجلها في كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا»، وهي أشبه بتقرير عن حياته، وتفسير وفي أحيان تبرير لتحولاته، ويعيبها أن ملكة الوصف عنده خابية وأحاسيسه فاترة، كما أنه مولع بالاستطرادات التي تعتور السياق، وكان أجمل به أن يختصر فيها، بخلاف ما كانت عليه الحال في السيرة الأخري، سيرة الشاعر والفارس العربي أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» فهي أشبه برواية متعددة الأحداث والأجواء والمناظر، صاغها بأسلوب بسيط يقترب في أحيان من اللغة المحكية، ويبتعد عن الزخارف اللفظية.

مشيناها خطي
سيرة ذاتية
رءوف عباس
دار الهلال - 336 صفحة - 2004

مع انحياز الكاتب إلـي «نظـام يوليو» فـإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخـله، فيعيب عليـه افتقاره إلي الديمقـراطية. أنظر إليه وهو يرسم صورة لعزبة هرميس التي عاش فيهـا صبيا، وسـكانها وكيف كانوا يعيشون حياتهم، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسـيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقـراء ومصريون.

إذا نحن انتقلنا إلي عصرنا الحديث، نجد أن فن السيرة الذاتية قد تخلف في نشأته عن قرينه في الغرب، فهذا الأخير سبقنا إلي نهضة، جعلت كتاب هذه السيرة من الأفراد المتميزين، بعد أن كانوا من الحكام والمتنفذين.

تعود الإرهاصات الأولي للسيرة الذاتية في شرقنا العربي إلي أحمد فارس الشدياق في كتابه «الساق علي الساق»، لكن البداية الحقيقية لها كانت مع طه حسين في «الأيام»، وبعده تتابعت السير الذاتية عند أحمد أمين في «حياتي» وتوفيق الحكيم في «زهرة العمر» و«سجن العمر» وزكي نجيب محمود في «قصة نفس» و«قصة عقل»، ثم تبلغ السيرة الذاتية قامة عالية عند لويس عوض في «أوراق العمر»، فكان أكثر صدقية وأوفر صراحة، تطرق إلي ما كان مسكوتًا عنه؛ مثل علاقاته الجنسية وعلاقاته بأسرته وأشقائه.

قبل أشهر صدر كتاب في السيرة الذاتية لكاتب متميز ومؤرخ مرموق هو رءوف عباس حامد؛ عنوانه: «مشيناها خطًي»، وقد أثار هذا الكتاب لدي صدوره ضجة داخل وطنه وخارج وطنه، ونفدت أعداده فأعيد طبعه غير مرة.

إذا نحن طالعنا «مشيناها خطًي» نجد الكاتب قد التزم فيه بالشرط الأول للسيرة الذاتية، فقد كتبها بعد أن بدأ مرحلة الشيخوخة (65عامًا)، صحيح أن نيتشه كتب سيرته في مرحلة عمرية مبكرة نسبيا، وعلي نهجه سار طه حسين في «الأيام» إلا أن الدارج في هذا الفن أن يكتب المرء عن نفسه، وقد بلغت تجربته الحياتية مرحلة نضجها، عركته وعركها، وشرع في تأمل مجرياتها بنظرة فاحصة إليها، كابد فيها ما كابد، وعاند فيها ما عاند.

من هذه الشرائط أن يكون الكاتب ذا تميز في منحي من المناحي، أضاف إليه وترك بصمة واضحة عليه.. وهو ما يتحقق في شخص رءوف عباس، وقد كتبت عنه ذات يوم أصفه بأنه «بقية باقية من جيل البنائين العظام الذين تعتز بها جامعاتهم اعتزازهم بهذه الجامعات. فقد خلف في علم التاريخ مدرسة ترددت أصداؤها في وطنه، وجاوزته إلي وطنه العربي الكبير. واجتمعت إلي كونه عالمًا كونه إنسانًا مضي به قطار العمر شامخًا مترفعًا عن الدنايا، لم تعرف عنه زلة في صبوته، ولا هفوة في سنوات كهولته، وهو في تعامله مع عالمنا هذا الرديء، كان العهد به وما يزال شجاعًا، يقول قولة حق ومقالة صدق، لا يقيم وزنًا لمال ولا جاه، ومناط المرء عنده عطاؤه.. عطاؤه فحسب».

حدد الكاتب الهدف من كتابه في إهدائه «إلي الشباب.. عساهم يجدون فيه ما يفيد.. وإلي الذين يسممون أمامهم الآبار. . لعلهم يتعظون» كما حدد منهجه في أنه «إذ يروي حكايته، لا يتقيد إلا بما رآه وسمعه وعاشه، وكان شاهد عيان عليه، دون مبالغة في الوصف، أو تزيين أو تزييف، التزامًا منه بأمانة الكلمة، مهما كانت دلالتها ومهما كان وقعها».

إذا نحن تعقبنا الكاتب نجده قد التزم علي مدار كتابه بهذه القاعدة الذهبية، فهو لا يخجل من الحديث عن فقره الذي كان رفيقه الأثير، منذ مولده في العام 1939، ابنًا أكبر لعامل بسيط فقير، بعث به إلي القاهرة وهو بعد طفل صغير ليعيش مع جدته الفقيرة بدورها، في عزبة هرميس، وهي عزبة لا تصلها الكهرباء ولا الماء، قد حذف من قاموسه مصطلح العشاء، وأضاف إليه في مرحلة تالية مصطلح الإفطار، ويعترف بأن جدته حرمته من تذوق طعم اللحم، فقد احتكرته لنفسها، وحين اختلس ذات يوم قطعة منه، لعنته وأمه لأنه «مفجوع» مثلها.

لا يقف القدر عند هذا الحد، بل إنه أوعز لأبيه، بأن يلحقه بالكتاب، علَّه يصبح عالمًا أزهريا، إذ ليس في إمكانه أن ينفق عليه في مدرسة. ويشاء القدر أن يتدخل في هيئة شخص كريم حل هذه المشكلة، وصار «صاحبنا» تلميذًا في مدرسة حنيفة السلحدار، لكنها عاودته مرة ثانية، حين فكر في الالتحاق بالجامعة، لولا شخص آخر كريم، أقرضه قرضًا حسنًا، وسيدة كريمة أعطته مبلغًا كانت قد ادخرته، ليعينها علي تصاريف الزمن.. وفي المقابل كان علي «صاحبنا» أن يسير إلي كليته في كل يوم خمسة كيلو مترات في الذهاب ومثلها في الإياب.

وإذا كان المرمي الأول للسيرة الذاتية هو أن يحدد لنا الكاتب ملامح شخصيته، نجده إنسانًا بسيطًا يجلس وهو «الأفندي» خريج الجامعة مع العمال في مطعمهم، وليس مع الموظفين، يشاركهم همومهم، ويدافع عن حقوقهم، غير مكترث بعسف يناله من الإدارة، وفيا لأساتذته يعترف بفضلهم، حتي من أساء منهم الظن به «وسيظل هذا موقفه إلي أن يلقاهم جميعًا في رحاب الله، عندما تفرغ كأس الأجل» معتدًا بنفسه، ينفر عرقه الصعيدي، عند أول إساءة، وكذا كانت حاله مع عميده، حين إعارته للخارج، فيلوح له باستقالته، عقلانيا منذ نعومة أظفاره، يمزق حجابًا، وضعوه له بعد حادثة أفضت إلي عاهة مستديمة، سوف تصحبه إلي قبره، يصر علي أن يفهم القرآن الكريم لا أن يستظهره فحسب، معطاءً لا ينتظر ثوابًا لعطائه، فيبادر إبان مقامه في اليابان، ودون تكليف من أحد إلي المساهمة في تأسيس قسم للغة اليابانية بجامعته، ويمهد السبيل لابتعاث زملاء له إلي هناك، ولدي عوده إلي وطنه يعيد بناء قسم التاريخ، وقد صار قاعًا صفصفًا، ليعين فيه معيدون ومدرسون (كاتب هذه السطور أحدهم)، شجاعًا يعرض عن كتابة بحث لابنة الرئيس الراحل، وأوراقه لدي لجنة الترقيات، دون أن يتعظ مما جري لزميله حسن حنفي، مغامرًا، لكنها المغامرة المحسوبة، فيضحي من أجل استكمال دراسته بوظيفة مستقرة، مقابل منحة مؤقتة، عنيدًا يصر علي التعيين في جامعة غير جامعته، مادام هذا حقه، متسامحًا مع إخوانه الأقباط، باعتبارهم جزءًا من نسيج هذا الوطن شأنهم شأن المسلمين، متصديا للدفاع عن حقوقهم، غير آبه بما قد يترتب علي ذلك من تبعات، وطنيا يشارك قبل أن ينبت عذاره في مظاهرات الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، رغمًا عن تأنيب جدته لانصياعه إلي «العيال البطالين» ويتطوع مرتين (1956 و 1967) للذود عن الوطن ضد أعداء الوطن.

ومع انحياز الكاتب إلي «نظام يوليو» لانحيازه إلي الفقراء، وما طرحه من مشروع نهضوي، كانت له إنجازاته التي لا ينكرها غير جاحد، فإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخله، فيعيب عليه افتقاره إلي الديمقراطية، وحكمه بأساليب أمنية، عاني هو نفسه منها، وعليه فلم ينضم إلي أي من تنظيماته السياسية التي غلب عليها النفاق والانتهازية، وآثر أن يكون من الأغلبية الصامتة.

لكن الكاتب لا ينظر إلي نفسه بعد هذا العمر علي أنه مبرأ مما يصيب البشر من أوجه القصور فيقول: «ولا يعني ذلك أن صاحبنكان دائمًا حكيمًا خاليا من العيوب والأخطاء، فلا يوجد قديسون بين البشر، فجميعهم خطاءون، وكثيرًا ما يتأمل صاحبنا هذه المواقف التي مرت به ويعيد تقييمها، فيأخذ علي نفسه أنه بالغ في سوء الظن بمواقف أطراف بعينها، ولكن ليس كل الظن إثمًا علي أي حال، حسبه أنه لم يتخذ موقفًا يومًا ما بدافع شخصي محض، وكثيرًا ما يكتشف أنه وضع ثقته في غير أهلها، وظن أن كل ما يلمع ذهب».

كاتب السيرة لا يقف عند وصف صورته، إنما يصف أيضًا صور من عاصروه، لأنه في علاقاته بهؤلاء يتكشف الصراع الذي يعطي السيرة الذاتية حيويتها، فهو ضرورة لها، مثلما هو ضرورة للرواية، فهناك أخيار وأشرار ودرجات بين هذا وذاك وبكل ألوان الطيف، وإذا نحن تعقبنا الكاتب في سيرته نجده مولعًا برسم صور للشخصيات التي صادفها عبر رحلة حياته، خصوصًا من شغل منها مواقع في هيئة التدريس بالجامعتين اللتين درس في إحداهما ومارس عمله في الأخري.

بين هذه الشخصيات ذلك الموظف بدرجة أستاذ الذي صعد في مناصب جامعته ليصل إلي أعلاها، ليس بما توافر لديه من علم، فلم يكن لديه سوي اليسير، وإنما بما توافر لديه من صفات ذميمة ودس ونميمة، وشبكة علاقات مع من هم علي شاكلته، تجمعهم المصلحة ولا يجمعهم الواجب. فكان يقف ضد تعيين المعيدين في قسمه، والمرة الوحيدة التي وقف فيها مع تعيين أحدهم كانت دون وجه حق ولمصلحة ارتآها، وحين كانت تتاح له فرصة الإشراف علي طلاب في مرحلة الدراسات العليا كان يتلذذ بإذلالهم ويتعمد تأخيرهم في الحصول علي درجاتهم، بخلاف ما كانت عليه حاله مع طلاب عرب وغير عرب، وهو يقف حجر عثرة ضد تطوير الدراسة في قسمه، حتي يضمن توزيع كتبه ومذكراته، وعهد عنه تعصبه ضد الأقباط، ووقوفه دائمًا في معسكر الفساد، واستغلاله منصبه في لجنة الترقيات، دون صعود عناصر جادة وشريفة (وكاتب هذا المقال أحدهم أو بالأحري أحد ضحاياه).

لم يستخدم الكاتب الأسلوب التقريري المباشر في تصويره لهذه الشخصيات إنما هو يحكي قصصًا له شهود عليها بأسلوب فيه من المتعة ما فيه من المرارة، بحيث يستطيع أن يوصل فكره إلي قارئه علي نحو سلس وشائق، وقد يلجأ أحيانًا إلي التصوير الكاريكاتيري، فعندما توجه في زيارة إلي جدته، بعد أن تركها ليعيش مع أبويه، ولاحظت عليه ما أصابه من زيادة في وزنه قالت إن هذا سوف يؤدي إلي «تخن مخه وخيبته في الدراسة بإذن واحد أحد»، وعندما يصف أحد زملائه من الذين طالتهم تهمة الفساد يقول إنه «بريء من شبهة القدوة»، ويستعيد ذكرياته عندما كان صبيا فيحكي عن «عربجي» الحنطور الذي يشرب من «قرعة» البوظة ويسقي حصانه معه، ويجيد في وصف شخصية أستاذه إبراهيم نصحي «بك» وهو التركي الذي يترفع عن أبناء الفلاحين، وينظر إليهم بازدراء، وينعي علي الجامعة أنها «برطشت».

علي أن الكاتب في عرضه تلك الصور يستدرك فيقول إنه «في تقديمه لما مر به من تجارب، يحرص علي ذكر تلك التي يقوم عليها شهود معاصرون (أمد الله في أعمارهم)، حتي لا يظن أحد أن بعضها أملته الأوهام وأحلام اليقظة وتصفية الحسابات، فكلها وقائع ثابتة، أكتفي بالإشارة إلي مناصب أصحابها أحيانًا، وذكر بعضهم بالاسم أحيانًا أخري، لا بقصد التشهير بهذا أو ذاك، ولكن بغرض دق ناقوس الخطر لمن خدعتهم المظاهر، فأخفت عنهم الجوهر».

ولأن سيرة الكاتب لا تنفصل عن سيرة عصره، فإن من واجبه أن يكون شاهد عيان علي هذا العصر، وهو ما التزم به في هذا الكتاب بحيث إننا نستمد منه بعضًا مما كانت عليه صورة مصر خلال الخمسين السنة الأخيرة من القرن العشرين. وقد كان في هذه الشهادة منفعلاً بمشاكل وطنه وهموم وطنه، كما كان طرفًا في بعض هذه المشاكل والهموم، مشاركًا فيها أو منفعلاً بها أو مراقبًا جيدًا لها.

أنظر إليه وهو يرسم صورة لعزبة هرميس التي عاش فيها صبيا خلال الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، وسكانها وكيف كانوا يعيشون حياتهم مسلمين ومسيحيين، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقراء ومصريون.

يقول: «وكان سكان العزبة موزعين توزيعًا متساويا بين الإسلام والمسيحية في بعض البيوت، بينما كان المسلمون أقلية في البعض الآخر من تلك البيوت، ولعل تجمع الأقباط المنياويين الفقراء في هذا المكان يعود إلي قربه من كنيسة ماري جرجس التي تقع في نهاية شارع الجيوشي. وكان فناء الكنيسة مرتعًا لأطفال العزبة من المسلمين والأقباط، فيذكر صاحبنا تلك الأيام التي شارك فيها أترابه اللعب في فناء الكنيسة، وتناول معهم لقمة القربان من يد «أبونا» القمص، ويذكر «عمته» أم جرجس، جارة جدته التي كانت تناديها «يا أمي»، وكانت تخاطب والد صاحبنا عند زيارته لأمه «يا أخويا»، وظل صاحبنا حتي بلغ الثامنة من عمره، يعتقد أن «عمته» أم جرجس شقيقة لوالده وابنة لجدته، وخاصة أن أبا جرجس كان ينادي الجدة «يا حماتي»، وعندما كان يحدث سوء تفاهم بين أبوي جرجس، كانت الجدة تعنف الزوج، فيسترضيها ويقبل رأسها.

«لذلك كانت عزبة هرميس «مصر الصغري»عاش سكانها معًا وكأنهم أسرة واحدة، يأكلون معًا من طبق واحد، فرغم فقرهم الشديد، كانوا يتبادلون أطباق الطعام والحلوي، ولم تكن أيام صيام الأقباط العديدة عائقًا أمام استمرار هذه العادة، بل كان الجميع مسلمين وأقباطًا صائمين معظم العام بالمفهوم القبطي للصيام، لا تعرف «طباليهم» اللحوم إلا في المواسم والأعياد. وكانت النسوة المسلمات والقبطيات يتبادلن إرضاع أطفال بعضهن البعض، بل ورعاية أطفال بعضهن البعض، إذا اضطرت إحدي الأمهات إلي السفر إلي قريتها فجأة لأمر طارئ، والجميع لا يفوته واجب عيادة المرضي، وتقديم التحية في الأفراح، والتعازي في الأتراح».

الأهم من ذلك كله تطرق صاحبنا إلي المسكوت عنه.. بصريح العبارة السلطة، حتي في عهدها الناصري الذي يتحمس له، ويعتبر نفسه واحدًا من المستفيدين منه، فيتحدث عن المباحث التي طاردته في الشركة التي عمل بها عقيب تخرجه من الجامعة، وطاردته وهو معيد جعل أطروحته لدرجة الماجستير عن تاريخ الطبقة العاملة المصرية،وكاد يكون واحدًا من ضحاياها لولا أستاذه أحمد عزت عبد الكريم.

يصل الكاتب بنا إلي ذروة التوتر الدرامي، إذا شئنا أن نستعير شيئًا من مصطلحات الأدب في الفصل الذي عقده عن الجامعة بعنوان «تحت القبة وهم» وإن كان قد تناولها علي نحو أو آخر في فصول سابقة، ويتضح لنا أن الجامعة كانت بالنسبة له حلمًا ورديا، عندما كان طالبًا في جامعة عين شمس، فكان بها أساتذة يتعاملون مع طلابهم علي أنهم أبناؤهم، يعلمونهم ثم هم يعلمونهم كيف يتعلمون.. لكن هذا الحلم تبدد لدي التحاقه بجامعة القاهرة معيدًا، ثم عضوًا بهيئة التدريس، فالأساتذة غير الأساتذة ولم يكن العلم في جملة أولوياتهم، وكانوا في جلساتهم الخاصة لا حديث لهم إلا في النميمة، ومادام لكل شيء سبب فالسبب يكمن أولاً وقبل كل شيء في تدخل السلطة في شئون الجامعة، وجامعة القاهرة علي نحو خاص باعتبارها الجامعة الأم، خصوصًا أنها لوحت لأساتذتها بمناصب الوزارة، فهرع الكثيرون منهم إليها وجعلوا أنفسهم في خدمتها وخدمة أمنها، الذي صار مديره في الجامعة يفوق في سلطاته سلطات رئيس الجامعة، ويأتي لنا بمهازل عن انتخابات الاتحادات الطلابية، ومهازل أخري عن انتخابات الاتحاد الاشتراكي في كليته، وكيف تحول بعض من كبار الأساتذة إلي عملاء للمباحث وكتبة تقارير. ثم هو يأتي بصور عما أفرزه هذا المناخ الفاسد، منها أنه أتاح الفرصة لزوج الرئيس السابق وبناتها لأن يلتحقن بالجامعة دون وجه حق، فتحصل هذه الزوج علي أعلي الدرجات وتعين معيدة، بل تحصل علي درجة الماجستير (وبعدها الدكتوراة) في وقت قياسي، وقد أحاطت بها جوقة من الأساتذة المنافقين الذين كوفئوا علي «خدماتهم الوطنية» بأعلي المناصب، كما يأتي بصور أخري عن جهلاء وفاسدين وصلوا إلي مناصب الجامعة العليا، لدرجة أن أحدهم كان يجهل من هو أحمد لطفي السيد أول رئيس مصري لجامعته وأستاذ لأجيال متعاقبة من المصريين، وأخيرًا وليس آخرًا تعديل شروط الإعارة، لخدمة أغراض شخصية لا علاقة لها بالعلم.

يتحدث الكاتب بعد ذلك عن آليات الفساد التي تتمثل في دعم الكتاب الجامعي والصناديق الخاصة ولجان الممتحنين ولجان الترقي التي حرمت الجامعة من عالم جليل ذي سمعة عالمية، هو أيمن فؤاد سيد، بعد أن تحكم في مصيره من لا يصلحون لأن يتتلمذوا علي يديه.

لكن الكاتب مع حزنه الشديد علي ما آل إليه حال الجامعة. إلا أنه، وهو العالم الذي يؤرخ لأزمنة سابقة علي زمانه بمنهج علمي صارم ورؤية نقدية موثقة، يعلم جيدًا أن الجامعة مؤسسة لا تنفصل عن المجتمع الذي تنتمي إليه، وهو مجتمع يمر بخلل بنيوي خطير، فيقول وهو ممرور «هذا غيض من فيض، عايشه صاحبنا تحت قبة

الجامعة التي ظنها يومًا مثالاً للنزاهة والنقاء خلت من الآفات التي يعانيها المجتمع. كان يظن أن الجامعة «بيت الحكمة»، العقل المفكر الذي يرسم للأمة خطاها، فاكتشف أنه كان واهمًا، وتبين له أن الجامعة خلية من خلايا المجتمع، تتأثر بما يصيب بقية الخلايا من عطب ومن أمراض، وأدرك أن الجامعة مرآة تنعكس علي صفحتها صورة المجتمع بما فيه من تناقضات، وما يعانيه من علل وأوجاع».

يبقي بعد ذلك أن نتساءل.. لماذا كانت الصور التي تتتابع عبر صفحات الكتاب في معظمها صور قاتمة كابية وحزينة، مع أن الواقع لا يخلو من صور أخري وضيئة؟.. لا نجد لذلك من تعليل إلا أن الكاتب تملكته كما قال شللي «شهوة إصلاح العالم».. هذه الشهوة التي جعلته يلتفت إلي هذه الصور الحزينة ويعرض عما سواها، ويحضرنا في هذا الشأن تلك السطور من «حياتي في الشعر» حين يقول صلاح عبد الصبور «يصفني نقادي بأنني حزين، ويدينني بعضهم بحزني، طالبًا إبعادي عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوي أنني أفسد أحلامها وأمانيها، بما أبدوه من بذور الشك في قدرتها علي تجاوز واقعها المزدهر (في رأيه) إلي مستقبل أزهر. وقد ينسي هذا الكاتب أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارًا للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر، هربًا من السفينة الغارقة. أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم، حتي ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها».

لنا في النهاية عتاب علي الكاتب ورجاء.. عتاب لأنه لا يسترسل كثيرًا في ذكرياته عن حياته العائلية، ومنها حياته العاطفية، وربما اعتذر عن هذه بشغله وأسرته بطلب القوت، ثم شغله هو بطلب العلم، وربما كان السبب زواجه في سن مبكرة من زميلة له، اطمأن إليها، وكانت عند حسن ظنه في الحال والاستقبال، وخير معين في رحلة الحياة، لكننا نحسب أن ليس له عذر حين لا يتحدث باستفاضة عن علاقاته بأبيه وأمه وأشقائه وأصدقائه ورفاق الصبا، لأن هذه العلاقات وما يترتب عليها، تشكل عنصرًا أساسيا في بناء شخصيته، وفي تفسير مواقف عديدة وحادثات عرضت له.

كذلك فمن اللازم لمؤرخ مرموق ترك بصماته واضحة علي علم التاريخ، وهي بصمات غير منكورة، أن يسهب في الحديث عن موارد ثقافته، فمعروف عن رءوف عباس ثقافة موسوعية، أعانته في فهمه للتاريخ وإحاطته بتفصيلاته وبواعثها.. هذه الثقافة لا تتأتي إلا بمطالعات في مجالات شتي؛ لكنه يكتفي بذكر ولعه بمشاهدة الأفلام السينمائية في صباه ومطالعة «البعكوكة» و«سندباد»، ثم قراءة بعض الكتب للرافعي (المؤرخ) وبعض الكتب لطه حسين وسلامة موسي وجرجي زيدان (لا حديث عن العقاد) ولا يذكر لنا ما عدا ذلك ولُظنه كثيرًا.

أما عن الرجاء فهو أن يتحفنا الكاتب بكتاب آخر عن الشخصيات التي عرفها، وعرض للمحات من حياتها.. وهكذا فعل غيره من سابقيه، وبينهم العقاد وطه حسين وهيكل والبشري وفتحي رضوان وغيرهم، فيصير شاهدًا علي رجال عصره، مثلما كان شاهدًا علي عصره.

http://www.weghatnazar.com/article/article_details.asp?id=713&issue_id=45